تأمل فى النور و الظلمة

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنودة الثالث

" فى البدء خلق الله السماوات و الأرض . و كانت الأرض خربة و خالية , و على وجه الغمر ظلمة , و روح الله يرف على وجه المياه . و قال الله ليكن نور , فكان نور . و رأى الله النور أنه حسن . و فصل الله بين النور و الظلمة . و دعا الله النور نهارا , و الظلمة دعاها ليلا . و كان مساء و كان صباح يوما واحدا " . (تك 1 : 5)

لم تقل يارب " لا تكن ظلمة " و انما قلت " فليكن نور " , فكان نور , و بقيت الظلمة , و وجد الاثنان معا ...

فلماذا لم تقض على الظلمة , ما دام النور الذى رأيتَه كان حسنا فى عينيك ؟ لماذا أبقيتها ؟ و لماذا أعطيتها اسما ؟ و لماذا سمحت أن يكون لها سلطان , و قلت " هذه ساعتكم و سلطان الظلمة " (لو 22 - 53) ؟ ! .

لماذا لم تجعل الكل نهارا , و الكل نورا , أيها النور الحقيقى , النور الذى لا يدنى منه ؟ لماذا سمحت بأن يكون الظلام موجودا , و بأن يحبه الناس أكثر من النور ؟ ! كان بإمكانك أن تلغى الظلام الغاء فلا يكون . أو لا تسمح بوجوده قبل أن يوجد . و لكنك أبقيته على الرغم من أنه لا يتفق مع طبيعتك ! فلماذا ؟

ان كنت قد سمحت أن يعيش الزوان مع الحنطة الى يوم الحصاد , حيث يلقى الزوان فى النار , فهل للظلمة أيضا وقت تنتهى فيه , و يعيش أبناء النور فى النور , النور الذى لم يستطيعوا الدنو منه عندما كانوا فى الظلام ؟ و لكن أليس حقا أن الأشرار يخلدون فى الظلمة الخارجية ؟ اذن فالظلمة الخارجية خالدة هى أيضا ! و لكن خارج أورشليم السمائية , بعيدة عن أولاد الله و بينها و بينهم هوة عميقة ...

متى وجد الظلام ؟ " كان على وجه الغمر ظلمة " . كان ذلك فى بدء الخليقة كلها , قبل أن يقول الرب " ليكن نور " ! فمنذ متى كان الظلام ؟ ...

عندما كان الله وحده فى الأزل , لم يكن هناك ظلام , لأنه لم يكن هناك سوى الله وحده , و الله نور . اذن فالظلام حدث . فمتى حدث ؟ و كيف ؟ و لماذا ؟ أجبني يا رب فأننى لا أعرف ...

هل كانت الظلمة أقدم من النور بالنسبة الى الخليقة ؟ و ما علاقة هذا بنظرية السديم ؟ بلا شك أن النور كان هو الأقدم . يقال أن هذه - الظلمة من الناحية الطبيعية - حدثت من فاعلية حرارة المجموعة الشمسية المنيرة فى الغمر , فتبخرت المياه بكثرة و سرعة , و من كثرة البخر تكون ضباب كثيف جدا حجب نور السديم , فصار على وجه الغمر ظلمة ... على أننى لا أريد أن أهبط الى مستوى هذا التفكير المادى , انما على أن أتأمل فى النور كما ينبغى ...

" كان على وجه الغمر ظلمة " . اذن كان هناك غمر , و كانت هناك أرض , و كانت هناك ظلمة . لم تكن الأرض تعرف الله , و لا كان الغمر يعرفه , فهل عدم معرفة الله كان هو الظلمة ؟ عندما كان روح الله يرف على وجه المياه , و المياه لا تعرفه " النور أضاء فى الظلمة , و الظلمة لم تدركه " ؟ ! ثم قال الله " ليكن نور " , فكان نور . أ كان ذلك النور هو سر تلك الآية الجميلة " السماوات تحدث بمجد الله , و الفلك يخبر بعمل يديه " (مز 19 : 1) ؟

هل هذا هو أول نور دخل الى العالم ؟ و لكن واضح أنه بدخوله لم ينته زمن الظلمة . فلماذا كانت الظلمة اذن ؟ أريد أن أعرف . فهمنى أنت . أتر علقى و روحى لأفهم أقوالك المحيية ...

و هناك أنواع من النور : قيل عن الشمس و القمر و النجوم انها نور . و قال الرب لتلاميذه " أنتم نور العالم " . و قيل عن الابن (الاله المتجسد) انه نور من نور , حل بيننا و رأينا مجده . و قيل عن الأب (الذى لم يره أحد قط) انه نور لا يدنى منه . و قيل عن قبول الانسان لعمل الله فيه انه استنارة ... و الخير عموما يسمى نورا , و الحكمة و المعرفة تسمى نورا .

فى بادئ الأمر خلق الله النور المادى الذى ندركه بالحس , و رأى الله انه حسن . و لكن هذا النوع هو أقل درجة من درجات النور . هناك نور آخر يتدرج فى الخليقة الحية حتى يصل الى الانسان الذى يمكنه بالروح أن يدرك الله ذاته . فما هو كنه النور فى النبات و الحيوان بأنواعهما ؟ و ما هى درجات رقيهما عن الجماد ؟ و ما علاقة كل هذه الخليقة بالله قبل خلق الانسان ؟ و ما علاقته به بعد خلقه ؟ الله نور . يفيض من نوره على الطبيعة فتتير , و أيضا على العقل و النفس و الحس و الروح , فيكون نورها من فيض نوره و لكن ليس من جوهره . كما أن الله هو الحياة , و قد

أعطى الخليقة حياة و لكنها ليست من جوهره و انما من فيضه . و الله هو عقل و روح , و قد أعطى الانسان عقلا و روحا , و لكنهما من فيضه أو من نعمته ... و هكذا .

لماذا رأى النور أنه حسن ؟ لأنه موافق لطبيعته . فالله نور ليست فيه ظلمة البتة . ان الظلمة ليس فيها الله , و الا أصبحت نورا . و الذين يخضعون للظلام , سوف يلقون فى الظلمة الخارجية , أى خارج نطاق التمتع بالله .

ان كان الله قد فصل بين النور و الظلمة , فكيف دخلت الظلمة الى الانسان ؟ و كيف تأصلت فيه ؟ و كيف أحبها أكثر من النور ؟ انها اسئلة , اتركها لتأمل كل منا ...